الفصل

9

علامة الأسد

في أيلول/ سبتمبر 1695 اختفى إسحاق نيوتن فجأة من كامبردج دون سببٍ واضح. ثم عاد بعد أسبوعين ولم يخبر أحداً أين كان. وانتشرت الإشاعات بأنه ذهب إلى لندن سراً، حيث ضَمِن أخيراً المنصب الحكومي الذي لم يتمكن صديقُه جون لوك من تسليمه إياه. واكتسبتْ هذه الإشاعاتُ أهميةً في أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر عندما كتب الرياضي جون ووليس John Wallis إلى إدموند هالي من أكسفورد: «علمنا هنا أن نيوتن صار رئيساً لدار السكّ، فإن صح ذلك فأنا أهنِّئه». أما هالي -الذي كان على اتصال بنيوتن- فقد كان على عِلْم بأن المفاوضات كانت تمضي قدماً، وأن قضية نيوتن يدافع عنها نصيرُه تشارلز مونتاغ، وهو شخصيةٌ سياسيةٌ نافذة، ومن ذوي الكلمة المسموعة لدى الملك. وكان هالي يَعلم أيضاً أن

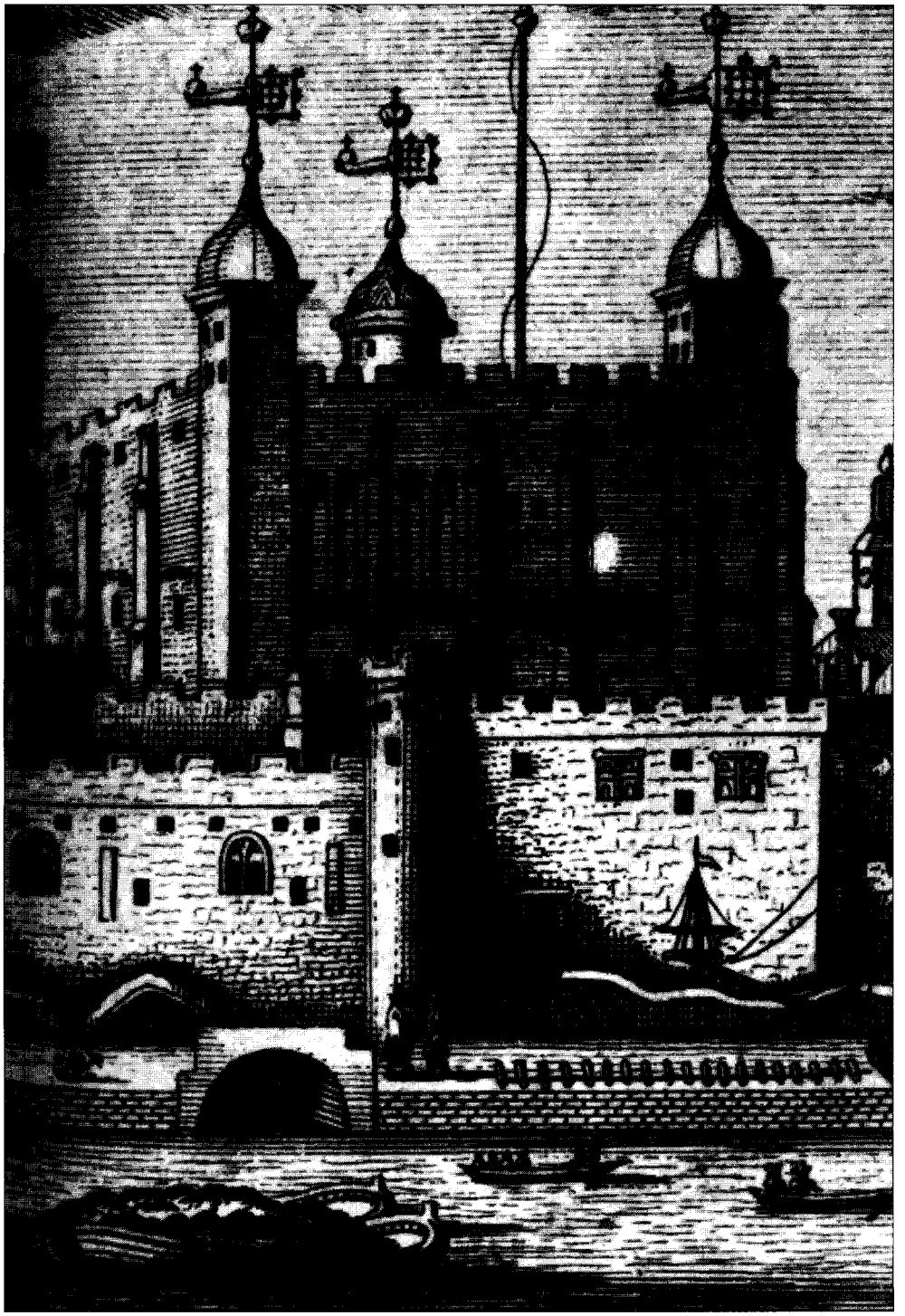

برج لندن، الذي كان مقرَّ سكّ العملة سنة 1696 عندما عُيِّن نيوتن قيّماً لهذه الدار. وبعد ثلاث سنوات تولّى المنصب الأعلى، وهو رئاسة الدار.

ووليس كان يُعطى معلوماتٍ خاطئةً بعض الشيء. إذ إن نيوتن لم يكن مرشحاً لشغل منصب رئيس دار السكّ، بل قيّماً لها أو الرجل الثاني فيها. وفي آذار/ مارس 1696 طلب مونتاغ من نيوتن الحضور إلى لندن ثانية. وهذا يعني أنه إذا سارت الأمور على ما يرام، فإن الوظيفة ستكون من نصيبه ومعها أجر سخيّ يقدَّر بـ 500 أو 600 باوند في السنة. فسارع نيوتن - دون التمهّل حتى لكتابة مسوّدة جواب - إلى ركوب الحافلة المتوجهة إلى العاصمة لمقابلة الملك وليام الثالث بعد طول انتظار.

ولا يتوفَّر لنا أيُّ وصفٍ لهذا اللقاء، والسبب بلا شك هو عدم وجود شيء يميِّزه - اللهم إلاّ لإسحاق نيوتن ابن خادم القصر الأمي. وقد أُعدَّت مذكرة توظيفه بعد ذلك بيومين. عاد نيوتن سريعاً إلى كامبردج وراح يضع في الصناديق ما تراكم لديه من عملٍ مضنٍ دام خمساً وثلاثين سنة، يتضمن آلافَ الصفحات من المخطوطات التي تحتوي على ملايين الكلمات في المراسلات والرياضيات والبصريات والكيمياء والأديان. وقد كان متعجلاً لدرجة أنه خلّف كثيراً من ممتلكاته الشخصية، ومنها الأثاث والأدوات الخيميائية. وهذه الأشياء لم يطالب أحد باستردادها، وكَوّنتْ فيما بعد جزءاً من متحف نيوتن، الذي كانت غرفُه تُبيِّن للزوّار باعتزازٍ وفخر بعد وفاته بوقت طويل أدقّ التفاصيل لكل أثر تاريخي احتُفظ به.

ونتيجة الحريق الكبير الذي حصل سنة 1666 باتت

لندن، التي كانت بهجة إنكلترا القديمة، وكأنها غير موجودة في الحياة. فعلى أنقاضها كانت قد شُيِّدت مدينة زاخرة مكتظة بأكثر من 750،000 نسمة، وهي المدينة الثانية في عدد سكانها في أوروبا بعد باريس. وتمتد من تَوَر هِل Tower Hill إلى مبنى البرلمان في وستمنستر Westminster على طول شارع عريض تكتنفه الأشجار يتصل بجسر لندن London Bridge وهو الامتداد الوحيد عبر نهر التيمز Thames. هذا الطريق المائي الممتدّ، الذي يصبّ في بحر الشمال North Sea يفيض وينحسر بالأمواج، وكان دائم الاكتظاظ بمئات السفن وعددٍ لا يحصى من المراكب الصغيرة، وكان يُعدّ وسيلةَ نقلٍ أَسرع وآمن من شوارع المدينة. ولكن في الخريف والشتاء يلفّ السديمُ والضباب الكثيف مياهَ النهر الملوثة، وتمتزج بالدخان المنبعث من المداخن التي لا تُحصى، فيملأ الشوارعَ بسحابة دكناء سامّة ألجأت الجميعَ إلى التزام بيوتهم عدا المتهوّرين والطائشين منهم.

وكان جزءٌ كبيرٌ من العمل يقوم به سكانٌ قساة من أحياء لندن الفقيرة، الذين يقطنون في الطرف الشرقي East End منها، ومعظمهم من مجذِّفي المراكب والحمّالين وعمال أرصفة الموانئ والعمال المياومين. وفوق هؤلاء طبقةٌ متوسطة من أصحاب المحالّ والحرفيين. ويأتي في قمة الهرم الاجتماعي التجارُ الأغنياء وأصحاب البنوك والموظفون السياسيون، الذين يقيمون في الأحياء الراقية البعيدة عن القذارة والازدحام.

وخلف أسوار المدينة القديمة التي شيّدها الرومان، الذين سَمّوا قاعدتهم الأمامية الواقعة على الحدود بـ لندنيم Londinium كان يقيم عدد ضخم من الطبقة الاجتماعية الدنيا، ومعظمهم من الفقراء والمشرّدين والمجرمين واليائسين الرجال والنساء الذين سيكون لنيوتن قريباً سببٌ للتعامل معهم وفق أسس منتظمة. فقد احتلّ عشرات الآلاف منهم أكواخاً غير صحيّة يواجهون الممرات المظلمة الخطرة التي تسدّها النفايات والفضلات مما يُقذف من النوافذ التي لا زجاج لها. هنا في لندن، حيث ما يسمى بالحقوق والحصانات والامتيازات، تجد العنفَ يسير جنباً إلى جنب مع المتع المبتذلة، على حين تجد أن سلطة رئيس البلدية ومسؤولي الأمن لا وزن لها. ونادراً ما كان لعمليات الجَلْد على الملأ، أو لعمليات الإعدام المنتظمة، أثرٌ في الحدِّ من السلوك غير القانوني، على الرغم من كونها تجتذب حشوداً ضخمة متدافعة في «يوم الشنق Hanging Day»، حيث يُحضَر المحكوم عليهم بالموت وسط حشود ساخرة من سجن نيوغيت Newgate Prison إلى تابيبرن Tyburn، وهو المكان الذي ينفَّذ فيه حكم الإعدام في ركنٍ من حديقة هايد بارك Hyde Park. فالغنيُّ يَدفع بسخاءٍ ليختار مقعداً في الشرفة الخشبية المحيطة بالمشنقة، وأما بقية الحشد فيتدافعون نحو الأمام على أمل الفوز بمكان يمكّنهم من رؤية المشهد بوضوح. فالمدانون بجرائمِ دولة، كالخيانة، كان يتولّى قطع رؤوسِهم جون كيتش John Ketch الجلاّد السيّئ السمعة

في تلك الأيام. وكانت عقوبةُ الموت شنقاً قصاصاً للمزوّرين، وهي تقع على عاتق القيّم على سكّ العملة لتقديم الدليل اللازم لإدانة مَن يقوم بتزوير عملة الملك.

يقع دار سكّ العملة الملكيّ في أشهر أبنية إنكلترا التاريخية وأكثرها خطراً، وهو برج لندن الكبير، قلعة مبنية من حجارة كلسية ضخمة تقع على قمة هضبة في الضفة الشمالية لنهر التيمز. يحمي جدران البرج الشاهقة خندق يحيط بالقلعة، كان ما يزال مملوءاً بالماء في أيام نيوتن. وكان الزائر يصادف خلف هذا الخط الدفاعي الخارجي حائطاً لبرجٍ ثانٍ على شكل حلقة، ولكنه أكثر ارتفاعاً من الأول. وداخل هذا الحائط الثاني تقع ثكنة الجنود ومخازن الأسلحة والبارود، أما الأبنية الأخرى فتعود إلى العصور الوسطى Middle Ages. وفي المنتصف ينتصب السجن الذي يُعرف بالبرج الأبيض White Tower. وقد شُيِّد هذا البرج في زمن وليام المنتصر William the Conqueror الذي اجتاح إنكلترا سنة 1066. واتخذ ملوك البلانتاجينتي Plantagenet هذا البرج قصراً لهم [وهي أسرة مالكة حَكَمتْ إنكلترا من 1154 - 1485] فوُلدوا ونشؤوا ضمن أسواره العظيمة.

وعلى مرّ القرون، كان برج لندن نُزُلاً لمعظم السجناء المشهورين الإنكليز. فالملكة إليزابيث الأولى Elizabeth I ابنة هنري الثامن Henry VIII دخلت إليه عبر بوابة تريتور Traitor's Gate عندما كانت ما تزال أميرة، وظلت تبكي

قبالة أسوار البرج الحجرية إلى أن استعادت حريتها. كذلك عانى زوجاتُ أبيها القليلات الحظ وأعوانُه السياسيون ما هو أسوأ من ذلك. وكان كلٌّ من: آن بولين Ann Boleyn وكاثرين هَوَرد Catherine Howard وتوماس كرمويل Thomas Cromwell والسير توماس مور Thomas More قد لفظ أنفاسه الأخيرة في تَوَر غرين Tower Green بعد أن كابدوا سَجناً مريراً. وحتى الملكة إليزابيث نفسها - بعد أن أصبحت ملكة - لم تُحجم عن مهمتها عندما رأت ذلك؛ فاللورد إسكس Lord Essex، وهو أحد المقربين من القصر، لقي ربَّه في تَوَر غرين على يد الجلاّد، في حين قضى المستكشف المغامر وولتر رولي Walter Raleigh [من خواصّ البلاط الملكي]، الذي كان قد قدَّم لجلالة الملكة كنزاً نفيساً حازه، ثلاثة أحكامٍ طويلةٍ بالسجن في البرج بناءً على أوامر منها.

وشأن جميع العاملين في دار السكّ، أدّى نيوتن اليمينَ بالمحافظة على السرية، متعهداً ألاّ يبوح بكيفية تصنيع العملة الجديدة على أمل حجبها عن المزوِّرين. وبحلول سنة 1695 أصبح التزوير منتشراً جداً، بحيث صار يتعيّن أن تُبدَل كل قطعة نقدٍ إنكليزية متداولة بأخرى حديثة السكّ. وتطلّبتْ هذه المهمة الضخمة عمّالاً للسكّ للعمل في مناوبتين، وأدّتْ إلى فتح فروعِ سكٍّ في مناطق أخرى من البلاد. وفي ظل المراقبة الدقيقة للقيّم الجديد ويقظته، بدأتْ كمياتٌ كبيرة من العملات الذهبية والفضية تتدفق من آلات سكّ العملة. ونظراً للغياب المتكرر

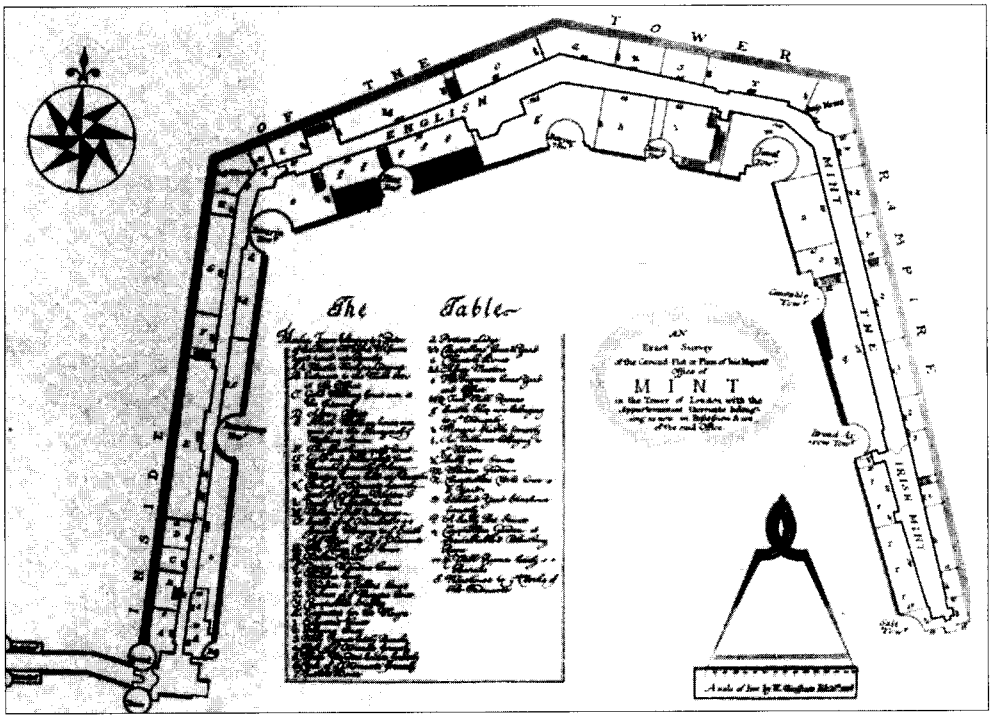

أُعدّ لنيوتن هذا المخطط لدار السكّ سنة 1701.

للمشرف توماس نيل Thomas Neale أصبح نيوتن بسرعة هو رئيس عملية السكّ بكل جوانبها الفعلية عدا الاسم.

ولكن نيوتن لن يستمتع بالنجاح حتى يسدِّد ضربة إلى محتالٍ نشِط كانت مواهبُه النادرة التي يسيء استعمالَها قد أثبتتْ تقريباً أنه ندٌّ له. كان هذا المحتال هو وليام كالونر William Chaloner المفطور على الخداع، والمزوِّر المكّار الذي شقّ طريقه إلى لندن عن طريق صناعةِ ساعاتٍ صغيرة عديمة القيمة، راح يبيعها في الشوارع مقابل ما يستطيع تحصيله. ثم إنه ما لبث أن أنشأ عقد شراكة مع مخادعٍ آخر، وصارا يقدّمان نفسيهما بالتناوب على أنهما

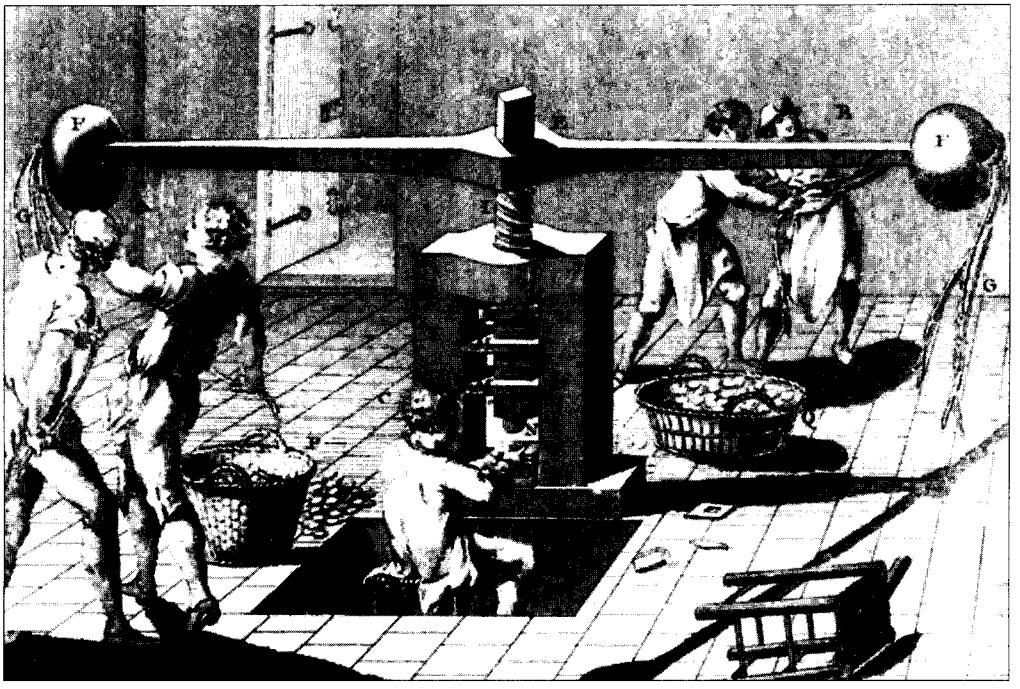

آلة سكّ النقد المعدني. عندما بدأ نيوتن عمله في دار السكّ أدّى اليمينَ بالمحافظة على السرية، وألاّ يبوح بكيفية تصنيع العملة الجديدة.

عرّافان وطبيبان معتبران. بعد ذلك رشا كالونر حِرَفياً ليعلّمه سرّ طلي الخشب على الطريقة اليابانية. ثم طبّق هذه المعرفةَ على دراسة المعادن إلى أن بات قادراً على صنع عملة مزوّرة ظنّها الناس في السوق أنها عملة حقيقية.

في هذه الأثناء تعرّف نيوتن بسرعة إلى عنصر الجريمة في عالَم الإجرام الواسع في لندن. فقد شملتْ اتصالاتُه العديدة كلَّ أنواع المجرمين: القتلةَ، واللصوصَ، والمتسوِّلين، والمحتالين، والذين يهاجمون الأشخاص ليسلبوهم النقود، علماً بأن أيّ احتكاكٍ بأيٍّ منهم قد يضعه في مواقف غير مأمونة. وعَلِمَ بالرشاوى التي تُدفع

لطمس الأدلة، وتعرَّفَ المخابئَ في القرى النائية، وكَشَفَ عن الاجتماعات السرية التي تُعقد في الحانات والعلاليّ المظلمة. ووضع نظامَ اتصالاتٍ مع رجال ونساء بأسماء مستعارة كثيرة، ووظّف عملاء سرّيين، وكان يرتدي من حين لآخر ملابس تنكرّية. حتى إن أولئك الذين يرفضون التعاون معه في تحرّياته كانوا يُستقدمون إليه مقيّدين بالسلاسل لاستجوابهم في البرج.

واعتقاداً من نيوتن بأنه يعمل في خدمة المبادئ الأخلاقية العليا، لم يكن يطلب أكثر من اعتقالِ كالونر وإدانتِه بسبب جرائمه العديدة. ولكنّ هذا المجرمَ لم يكن مجرماً عادياً من النوع الذي اعتاد نيوتن التعامل مع أمثاله. فمع أن هذا اللصَّ المعلِّم كان غنياً ويطوف في أرجاء لندن وهو يركب مركباً فارهاً وإلى جانبه امرأة جميلة، فقد كان اهتمامُه بالمال والاحترام الزائف أقلَّ من اهتمامه بإتقان أداء اللعبة. فقد كان يحب التدليس والمكيدة، والخداع، والبراعة اليدوية التي تنسجم مع دهائه في مواجهة موهبة الحكومة ودهائها. وعندما يواجَه بالأدلة التي تربطه بجريمةٍ خطرة يتملّص منها مرة بعد مرة باللجوء إلى الكذبة الكبيرة، وهي وسيلة خبيثة يسميها هو على سبيل المزاح بالفقاقيع.

لم يرتكب هذا المزوِّر خطأً أكبر مما فعله عندما مَثُل أمام لجنة البرلمان ليقترح بوقاحة تحسينات في سكّ العملة الجديدة. فغضب نيوتن غضباً شديداً وأعلن أنّ

كالونر هو هدفه الأول. فردّ كالونر بالسخرية من «ذاك الكلب العجوز» نيوتن الذي أقسمَ في فورةِ غضبٍ أن يشنق هذا الوغد. وكانت هذه هي النقطة التي قرّر نيوتن أن يترخَّص في تفسير القانون حيالها بغية تخليص العالَم من معذِّبه الماكر.

اعتُقل كالونر دون سابق إنذار وأُلقي به مقيّداً بالحديد خلف الأسوار الرطبة لسجن نيوغيت. ولقاء خدماتٍ معينة، وظّف نيوتن ثلاثةً من المحكوم عليهم ليكسبوا ثقة كالونر ويقفوا على أعماله الإجرامية. واستغرق هذا الأمر ثلاثة أسابيع فقط. ثم حوكم كالونر بتهمة الخيانة العظمى وأُدين بذلك، اعتماداً على شهادة شهود نيوتن، وجميعهم مجرمون محترفون. ولم تلقَ ادعاءاته بأنه اتَّهم زوراً وبهتاناً آذاناً صاغية، وحُدِّد موعد تنفيذ حكم الإعدام فيه.

ومن سخرية القدر أن يكون أمل كالونر الوحيد بالتماس الرحمة [السجن بدلاً من الإعدام] منوطاً بنيوتن. وبالفعل، وقبل موعد تنفيذ الحكم بقليل، كتب رسالة مثيرة للعواطف إلى هذا القيِّم: «أنا ذاهب إلى الموت يا سيدي، ومع أنك قد تعتقد أنني مذنب، إلا أن الحقيقة أنني سأُقتل بأبشع الوسائل المتاحة للعدالة، ما لم تمتد يداك الرحيمتان لإنقاذي». وبعد عدة أيام حصل كالونر على الجواب العملي عندما حُمل على عربة طافت به مسافة ميلين عبر الشوارع إلى المشنقة في هايدبارك. وهناك كرّر مطالبته ثانية، وهو في حالة هستيرية يصرخ

بالجموع المحتشدة أنه كان ضحية الكذب والظلم. ولم يهتم بذلك إلا قلةٌ من الناس، ذلك أنه من النادر حقاً ألا يُجاهِرَ المجرمُ ببراءته وهو يواجه لحظةَ موته. لم يكن نيوتن نفسُه حاضراً عملية الشنق، ولكن الرجلَ الذي شبّهه كالونر بالكلب العجوز كانت له في النهاية الكلمةُ الفصل؛ إذ قال: «المجرمون كالكلاب، دائماً يَرجعون إلى قيْئهم».

وحتى في الوقت الذي كان يطارد فيه نيوتن المجرمين، ويرفع إنتاج النقد المعدني إلى رقم قياسي مقداره 100،000 باوند في كلّ أسبوع، كانت سمعتُه الحسنة بوصفه فيلسوفاً طبيعياً تتنامى أكثر فأكثر. ففي كانون الثاني/يناير 1697 تلقّى رسالة من يوهان برنولّي Johann Bernoulli وهو أستاذ مشهور في الرياضيات من جامعة بازل Basel في سويسرا. تضمنت الرسالة مسألتين رياضيتين عويصتين؛ إحداهما كانت قد نُشرت في مجلةٍ علمية قبل ستة أشهر ولكنها بقيتْ دون حلّ، والأخرى حلّها الفيلسوف والرياضي الألماني الموهوب غوتفرد ولهلم فون لايبنز Gottfried Wilhelm von Leibniz ولكن برنولّي قرّر التكتم على حلّ لايبنز لاختبار مقدرة نيوتن.

تسلّم نيوتن رسالةَ برنولّي في وقت متأخر بعد ظهر أحد الأيام، بعد يوم طويل ومتعب في دار سكّ العملة. تَطْلُب مسألةُ التحدي الأولى من نيوتن أن يحدِّد المنحنيَ الذي يرسمه جسمٌ ثقيل ساقط بتأثير ثقله عندما يهبط

طلب قيصر روسيا بطرس الكبير – أثناء زيارته إلى لندن سنة 1697 – الاجتماع بنيوتن ليتعرّف على أعماله.

بسرعة قصوى من نقطة معينة إلى أخرى. أما المسألة الثانية فقد كانت أكثر تعقيداً وتتطلّب سلسلةً من الخطوات مازالت تحيّر الباحثين حتى الآن.

عكف نيوتن مباشرة على العمل ناسياً عشاءه، وبعد اثنتي عشرة ساعة تقريباً؛ أي عند الرابعة صباحاً حصل على الأجوبة الصحيحة، ومع ذلك ما زال يرفض الذهاب إلى النوم. وراح يَخطّ رسالةً إلى رئيس الجمعية الملكية

ضمّنها الحلولَ التي ستُدفع إلى الطبع - وفقاً لتعليمات الرئيس - في محاضر الجلسات الفلسفية مغفَلةً من اسم مؤلِّفها. فلما خرجت المجلة من الطبع بعد بضعة أسابيع، صُعق الرياضيون؛ وكان منهم يوهان برنولّي الذي كتب إلى صديق له بأن إسحاق نيوتن وحده الذي نجح حيث أخفق الآخرون، وقال: «أستطيع أن أحكم مَن هو الأسد مسترشداً بمخلبه».

اجتمع نيوتن بالملك وحظي بتقديره، وأصبح محورَ اهتمام الحاشية الملكية. ففي حزيران/يونيو سنة 1697 غادر قيصرُ عموم روسيا الشاب بطرس الكبير بلادَه في زيارة إلى إنكلترا وغرب أوروبا. كان بطرس فارع القامة، إذ بلغ طوله ستة أقدام وسبعة إنشات، وهي قامة من شأنها أن تجعل هيكله شيئاً نفيساً لأي مجتمع علمي، وهو يحمل خاتماً نُقش عليه: «أنا تلميذ وبحاجة إلى أن أتعلم». وكان أيُّ شيء يتعلق بالعلم الحديث والتكنولوجيا مدعاةً لأنْ يثير اهتمامه. وبالفعل، فقد خطّط القيصر أن يحمل كثيراً مما تعلّمه إلى بلاده، التي لم تكد تخرج بَعْدُ من العصور الوسطى. وبعد زيارةِ أحواض بناء السفن الإنكليزية، ومصنع المدافع الرئيسي، والمرصد الملكي في غرينتش، طلب على وجه الخصوص الاجتماعَ بمؤلف المبادئ الأساسية. عُقد الاجتماع في برج لندن، وتحدث فيه نيوتن مع القيصر بأمور العلم، ورافقه بزيارةٍ إلى دار سكّ العملة، حيث تقوم مكابسُ ضخمةٌ مقودة بالحبال والرجال الأشداء بطرق النقود

طَرَقات مختلفة وكأنها دقات ميقاتيةٍ عملاقة لا تكاد تفتر.

وبعد مغادرة بطرس إنكلترا بقليل، قام جاك كاسيني Jaques Cassini بزيارة نيوتن، وهو ابن الفلكي المعروف جيوفاني دومينكو كاسيني Giovanni Domenico Cassini. كان كاسيني عاملاً للملك لويس الرابع عشر Louis XIV المعروف بملك الشمس Sun King والذي أقام قصرَه الفرنسي في فرساي Versailles وأحاطه بأشجار البرتقال وألف من النبلاء المطيعين. ولمّا عرض كاسيني على نيوتن منحةً سَنيّة، اعتذر نيوتن بلباقة، فآراؤه الدينية كانت تحمله دوماً على الرغبة عن كل ما يتصل بملكٍ كاثوليكي في مملكة كاثوليكية. استشعر الملك شيئاً من الإساءة إليه، فقرّر ألا يدرج اسمَ نيوتن في قائمة المرشحين لمنصب زميل خارجي للأكاديمية الفرنسية للعلوم في السنة التالية. ولكن بعد سنة، أي في سنة 1699، عَيّنت الأكاديمية من تلقاء نفسها نيوتن زميلاً خارجياً بصحبة يوهان برنولّي الذي كان نيوتن قد ردّ على تحدّيه الرياضي من قبلُ بكل جدارة.

وكانت اتصالات نيوتن بعائلته قد تقلّصت منذ وفاة أمه، باستثناء زيارات إلى لنكونشير من حين لآخر. فقد كان في كامبردج قانعاً بالمرور البطيء للأيام والفصول، وبالعزلة التي سمحتْ له بمواصلة عمله دون مقاطعة. وها قد حوَّلته لندن ودار سكّ العملة إلى رجل عمل، بمشيئته أو رغماً عنه، وتطلّب ذلك منه أن يستقبل الزوّار من

ذوي السلطة في بيته لتناول الطعام والشراب عنده.

ولمّا كان نيوتن أعزب، فقد كان بحاجة إلى مَن يعتني بحاجاته المنزلية ويجلس إلى جانب طاولته عندما يزوره الضيوف. وبدلاً من أن يعتمد على مدبّرة منزل، تحوّل إلى كاثرين بارتون Catherine Barton ابنة أخته لأمه، التي كانت في السابعة عشرة من عمرها عندما وصلتْ إلى بيت خالها في شارع جرمين Jermyn سنة 1696. وكان جمالُها يسترعي النظر بإجماع الآراء. وقد أصابها مرةً الجدري، فأرسلها نيوتن إلى الريف للاستشفاء، قلقاً عليها من أن يتشوّه وجهها الجميل بندوبٍ دائمةٍ يخلّفها الجدري، فكتب لها: «أرجوكِ، أخبريني كيف حال وجهك، وهل خفّتْ وطأة الحمّى. ربما يساعد اللبن الساخن على التخفيف من الحمى». ثم إن نيوتن نفسه تنفّس الصعداء لما وقعتْ عيناه عليها وقد عادت جميلة كالمعتاد.

ولم تكن نظرات كاثرين وحدها التي سحرت نيوتن الصارم بطبعه وأفراد دائرته الاجتماعية، بل بدت لهم وكأنها قريبةُ نيوتن الوحيدة الموهوبة موهبة استثنائية؛ ولم يكن جمال كاثرين ولباقتها ولطفها وحدها هي التي لفتت الأنظارَ إلى شمائلها، بل إنّ ذكاءَها وسعة اطلاعها منحاها إعجاب كثير من الشخصيات السياسية والأدبية المرموقة.

وقد نَظَم صديقُ نيوتن ومؤيده تشارلز مونتاغ قصيدة يمتدح بها كاثرين، وشرب نخب جمالها في نادي كيت-كات Kit-Kat وهو جمعية ذات علاقة بالطبقات الاجتماعية الراقية أسَّسها العضو السياسي في حزب الأحرار كريستوفر

كيت كيت Christopher «Kit» Cate. وغدا الروائيُّ المشهور جوناثان سويفت Jonathan Swift ـ صاحب رحلات جوليفر Gulliver's Travels التي تستكشف أرضَ ليليبوت Lilliput الأسطورية –صديقها الأثير. ورأى سويفت في كاثرين محدِّثةً بارعةً ورفيقةً موهوبة لا يَملّ أبداً من رفقتها. فقد كتب مرةً إلى صديقٍ له: «ذهبتُ هذا الصباح لأرى الآنسة بارتون، وإني أحبها أكثر من أي شخص هنا، وأرى أنها نادرة المثال».

عندما تحدث سويفت عن الحب، كان يعني أعمق أنواع الصداقة فحسب، ولكن قلوب الآخرين كانت تعبّر برومانسية. فقد وقَع الموظف الفرنسي ريمون دو مونمور Rémond de Monmort في حبّ كاثرين أثناء إحدى الزيارات إلى لندن، علماً بأنه كان قد ترك السيدة دو مونمور في باريس. وأفضى بما يعتمل في نفسه إلى صديقه في الجمعية الملكية بروك تايلور Brooke Taylor قائلاً: «لقد أُعجبتُ بها لا لحُسْنها الأخّاذ فحسب، بل لحيويتها ورجاحة عقلها. وإذا حالفني الحظ السعيد في أن أكون بقربها، فسأصبح من الآن فصاعداً مرتبكاً كما كنت في المرة الأولى التي قابلتها بها». أما نيوتن نفسه، فلم تتحرّك مشاعره حيال أحدٍ بعد فاتيو دي دولر Fatio de Dullier كما تحرّكت الآن بهذا العمق الكبير، فقد جعل مَرَحُ كاثرين وجمالُها وحماستُها العودةَ إلى البيت من دار سكّ العملة في أماسيّ الشتاء القارس سروراً حقيقياً لهذا الأسد الهرم.

كان توماس نيل، رئيس دار سكّ العملة، في نظر نيوتن كذكَر النحل لا يؤدي عملاً ولا يُنتج عسلاً. وبعبارة أخرى، كان نيل مثالاً لمعظم موظفي الحكومة الذين ضمنوا لأنفسهم وظائفَ مريحة بفضل اتصالاتهم الرفيعة، ثم يواصلون الاستمتاع بحياة منعمة على حين يقوم مرؤوسوهم بشؤون العمل طوال اليوم. على أنّ الحسنةَ الوحيدة التي فعلها نيل هي أنه أعطى نيوتن - الذي لا ينضب معينه - حريةَ تصرّفٍ كاملة، مخوّلاً إياه تولّيَ أيّ كبيرة أو صغيرة في إدارة شؤون دار السكّ. ثم إن نيل توفي في 23 كانون الأول/ديسمبر سنة 1699. وقبل وفاته مرضَ مرضاً شديداً لعدة شهور، فكان من المتوقّع أن الموافقة على خليفته ستصل مبكّراً. وبالفعل، أصبح نيوتن بعد يومين رئيساً لدار السكّ، وكان ذلك في يوم عيد الميلاد، الذي كان أعظم تهنئة بعيد ميلاده السابع والخمسين. وكان هذا تغيّراً مفاجئاً؛ ذلك أن الرئيس الجديد وجد أن دخله السنوي قد تضاعف عشر مرات، رافعاً ثراءه السابق إلى مصافّ معاصريه من أصحاب الملايين.

إن نيوتن، المحافظَ على القديم في الشؤون المتعلقة بأمواله، لم يقدِّم استقالته من منصب الأستاذية عندما غادر كامبردج سنة 1696. فإذا لم يَطِبْ له المُقام في لندن، أو وجد نفسه فجأة معرَّضاً لفقد منصبه، فباستطاعته دوماً العودة إلى الوظيفة التي خَدَمتْه جيداً. لذلك انتظر سنتَين أخريَيْن بحذر، تمكّن خلالهما من كَسْب عدة آلاف

الباوندات من وظيفته رئيساً لدار سكّ العملة، وذلك قبل أن يقرِّر قطع صلاته الأكاديمية بالجامعة. وفي كانون الأول/ديسمبر 1701 تخلّى نيوتن عن منصبه في الأستاذية، ولكن ذلك لم يحدث قبل أن يصطفيَ بنفسه خليفةً له، وكان ذلك الخليفةُ الرياضيَّ الشاب وليام وستون الذي شارك نيوتن آراءه الدينية السريّة والخطرة سياسياً.

وفي لفتةٍ تكريمية، انتخبته الجامعةُ عضواً في البرلمان، وقد أشارت السجلات مرةً ثانية أنه لم يكن يتحدث شيئاً خلال المناقشات الطويلة والمشحونة إلى حدٍّ بعيد. ومهما كان الأمر، فإن حياة هذا البرلمان كانت قصيرة؛ إذ إن وليام الثالث المريضَ لفظ أنفاسه الأخيرة في 7 أيار/مايو سنة 1702، واعتلَتِ الأميرةُ آن Anne عرشَ إنكلترا، وحلَّتْ - كما هو معتاد - البرلمان، ودَعَتْ إلى انتخابات جديدة. ولما سألتْ سلطاتُ كامبردج نيوتن عن رغبته في الانخراط في عضوية البرلمان مرة أخرى، اعتذر بلباقة قائلاً: «لقد أدّيتُ دوري في خدمة هذا البرلمان، وعليّ أن أفسح المجال لغيري ممن ينتظرون دورهم في البرلمان القادم». ومع أن نيوتن سيبقى معيّناً في وظيفةٍ سياسية بقية حياته، فإن أيامه السياسية قد ولّت.

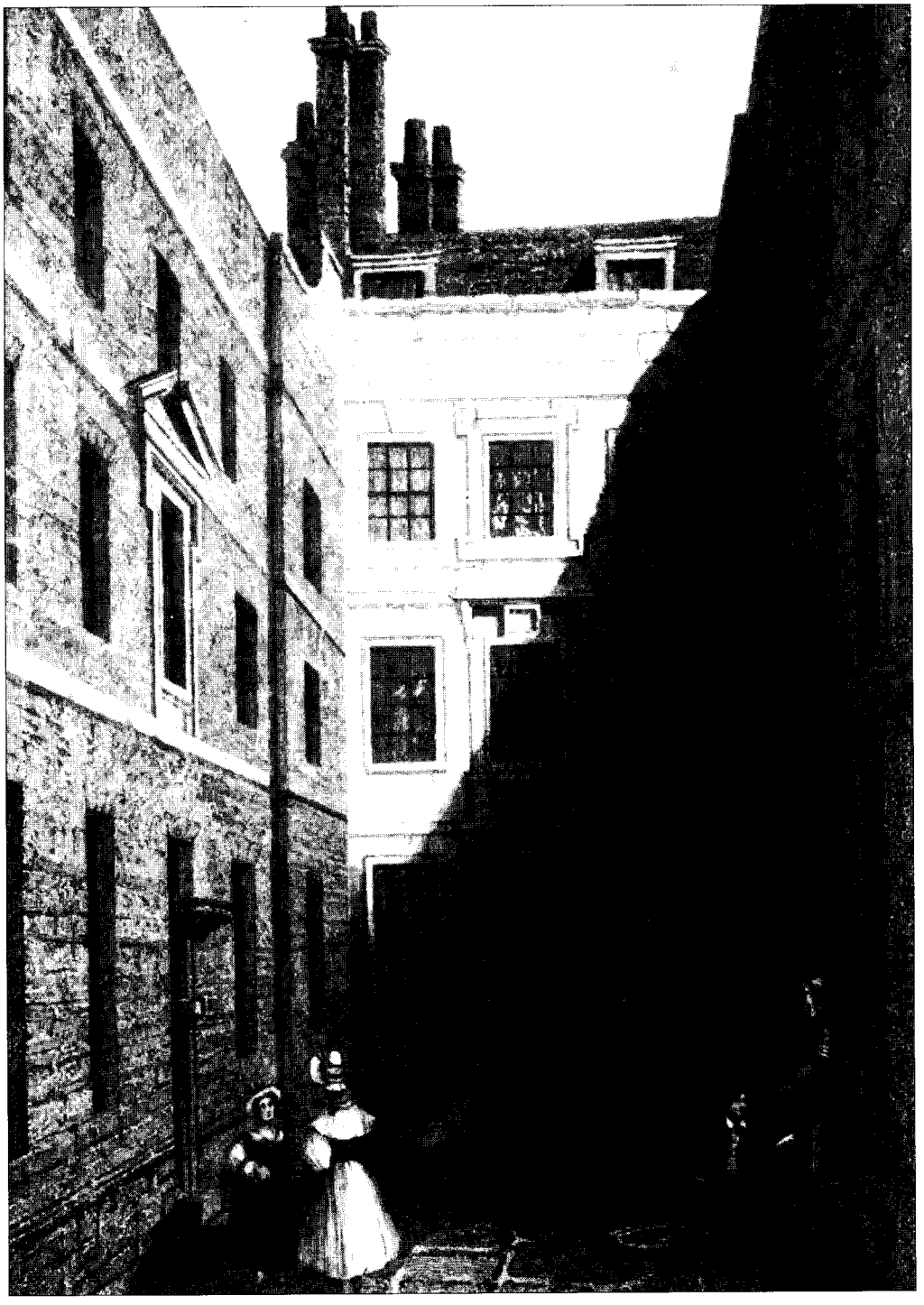

كرين كورت، أول مبنى دائم للجمعية الملكية، اشتُري سنة 1710. وكان نيوتن قد قضى سنوات عديدة يبحث في لندن عن مكان مناسب لمركز الجمعية.